

صورة الآخر في ألف ليلة وليلة

الدكتورة ماجدة حمود*

الملخص

هَدَفَ هذا البحث إلى مقاومة لغة التعصب، التي بدأت تجتاح حياتنا، وذلك عن طريق فهم الذات العربية وعلاقتها بالآخر، الذي هو في "ألف ليلة وليلة" (الفارسي، الهندي، الإفرنجي، العبد، الجنّي)

انفتحت الليالي على الآخر الفارسي، فقدّمت صورة مشرقة لعظمائه (أنو شروان، سابور، البرامكة) وقد تم التمييز بين الأعجمي المسلم والمجوسي! كما حاولت إنصاف البرامكة المهزومين سياسياً من قبل الخليفة، فجددت لهم صورة أقرب إلى المثال! ولعل هذه الصورة المتعاطفة دليل على أن الفرس قد شاركوا في كتابة ألف ليلة.

وقد عرضت لنا هذه الليالي، عبر مغامرة السندباد، وعادات الهنود، حتى بدت لنا الهند بلد السحر والأساطير، ونسبت إليه كثيراً من الكائنات الخرافية.

ويلمس المتلقي فيها الفارق الحضاري بين المسلمين والإفرنج، لهذا بدا لنا الإفرنجي راغباً في التعلم، ومن الملاحظ أن الحروب شوّشت التعايش السلمي بينهما، مما أدى إلى تقديم صورة مشوهة عن الآخر!! وإن كانت الصورة الإيجابية من نصيب المسيحي (الراهب).

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

وهناك ملامح عرقية، فالعبد الزنجي (خائن، بشع، مجرم) في حين بدأ العبد الأبيض بعيداً عن التشوّه، لهذا فُتحت أمامه أبواب الأمل من أجل تغيير وضعه الاجتماعي!

يجد المتلقي الجني الطيب في الليالي مسلماً، والخبيث كافراً، وقد عاشت الجن حياة الإنسان العادي (تأكل، تتزوج...) وحياة غير عادية، إذ تمتعت بقدرات خارقة مسخرة للدفاع عن الخير!!

وهكذا تكمن جماليات الصورة في كونها جسدت الرؤية الموضوعية للآخر، التي أبرزت التنوع، كما جسدت لقاء الواقع بالحلم، والمادة بالروح، فكانت صورة الآخر صدى تلاقح حضارات مختلفة فيها، وإن كانت الحضارة الإسلامية أبرزها!

هَدَفَ هذا البحث إلى مقاومة لغة التعصب، التي بدأت تحتاح حياتنا، وذلك عن طريق فهم الذات العربية وعلاقتها بالآخر، من هنا تأتي أهمية دراسة الصورة (imagologie) التي تُعنى بمعرفة الصورة الذهنية التي يشكلها الإنسان عن ذاته وعن الآخرين، لذلك فإن أية صورة للآخر هي انعكاس لـ(الأنا) سواء أكانت تجسد اختلافاً (الآخر مقابل للأنا) أم لقاء (الآخر يشبه الأنا) وبذلك تعدّ هذه الصورة فعلاً ثقافياً، يقدم تفاعل الأنا مع الآخر، فنعايش تفاصيل الحياة الاجتماعية والفكرية والروحية بكل صدقها وعفويتها، ولأسيماً أننا نلتمسها عبر الأدب، الذي يطلعنا على مفاهيم الآخر، وموروثاته الشعورية واللا شعورية، كما نعايش من جهة أخرى أوهام الدارس عن نفسه وعن الآخر، إذ كثيراً ما تكون دراسة صورة الآخر تعبيراً عن الذات ونفياً للآخر.

إذاً كثيراً ما تؤدي الكتابة عن الآخر إلى تعرف الفرد على ذاته، فتبدو الصورة التي يقدمها عن الآخر تعبيراً عما يعاينيه من إحباط ورهاب وهوس، على المستوى الفردي والجمعي، فهي مجال للتنفيس عن عقد ومكبوتات يعاين منها الفرد والأمة، إذ لا يمكن أن يكون الخيال الذي يشكل أبرز ملامح الصورة مجرد أوهام لا علاقة لها بالواقع، إذ إنه يخضع لمؤثرات تاريخية وبيئية، فضلاً عن تجارب وأحلام شخصية.

لذلك يمكننا القول: إنّ دراسة الصورة لا تهتم بواقعيتها، وإنما بكونها مطابقة لنموذج ثقافي موجود قبلها في الثقافة الدارسة، وليس في الثقافة المدروسة، مما يتيح لنا فرصة تعرّف أسسها وعناصرها ووظيفتها الاجتماعية!⁽¹⁾

إن الآخر في "ألف ليلة وليلة" هو الذي يختلف عن (الأنا) العربية المسلمة الحرة (الفارسي، الهندي، الإفرنجي، العبد) كما يختلف عن الأنا الأرضية (الجنّي).

¹ - تأليف عدد من المقارنين الفرنسيين بإشراف بيير برونيل، وإيف شفريل "الوجيز في الأدب المقارن" ترجمة د. غسان السيد، ط1، 1999، ص147، بتصرف

وقد عايشنا في "ألف ليلة" هوية الأنا في لحظة مأزومة على الصعيد السياسي والاقتصادي، لكنها كانت مزدهرة ثقافياً!

1- الآخر الفارسي:

تتوعدت منافذ اللقاء مع الآخر الفارسي، بسبب الجوار الجغرافي، مما سهّل انتقال الناس عبر الحدود، فنشأت علاقات منفتحة، توحى بعمق التمازج الحضاري، كما نشأت علاقات متوترة بسبب الحروب التي كانت بين العرب والفرس قبل الإسلام وبعده.

يلاحظ أن الراوي المسلم في "ألف ليلة وليلة" قد أضفى الطابع الإسلامي على الشخصيات الفارسية حتى تلك التي تنتمي إلى مرحلة ما قبل الإسلام، فنجد مثلاً في بلاد خراسان في (قديم الزمان) تاجراً اسمه (مجد الدين) وهذا ما فعله الراوي أيضاً مع شخصيات عربية تنتمي إلى العصر الجاهلي!

لم نجد الليالي حين قدمت أهل خراسان أسيرة للصورة النمطية، التي قد تكون ذات ملامح سلبية، كذلك الصورة التي عرفناها في بخلاء الجاحظ، حيث صيّمهم في قالب البخل⁽²⁾ في حين وجدنا في "ألف ليلة" أحد أبناء خراسان يقرض بغدادياً مالاً، ثم يسامحه.

صورة عظماء الفرس:

بدت لنا صورة ملوك الفرس ووزرائهم مشرقة، وقد احتل كسرى (أنو شروان) مكانة رفيعة، فتكرر وصفه بالعدل، وقد بدا لنا مهموماً برفاهية شعبه، يقوم بزيارات تنكزية، ليتفقد أحوال الرعية، بل نجده يدّعي المرض، فيرسل ثقافته ليجتثوا له عن

² - من أجل تفاصيل راجع د. ماجدة حمود "مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن" اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000، ص135

دواء (لبنة عتيقة في قرية خربة) فلم يجدوا، فشكر الله وقال "إنما أردت أن أجرب ولايتي، وأختبر مملكتي، لأعلم هل بقي فيها موقع خرب لأعمره؟ الآن تمت أمور المملكة..."⁽³⁾ لهذا لاحظنا مدى حب شعبه له، فحين يشعر بالظماً، يطلب من فتاة قروية ما يشربه، فتقدم له عصير قصب السكر، بعد أن وضعت فيه قليلاً من التراب، كي لا يسرع في الشرب، ويضرّ صحته.

إذا يحس المتلقي أن الراوي المسلم يجعل صورة ملوك الفرس تجسيدا لحلمه في الحاكم العادل، الذي بات يفتقه في سلاطين عصره، لذلك أسقط على لسان الأكاسرة وكبار رجالها ما يؤمن به من حكم وأمثال تتفقه من الجور، وتتناسب مع إيمانه ونسقه الفكري! فمثلاً في الليلة (60) يقول (أزدشير) "إن الدين والملك توأمان، فالدين كنز والملك حارس" فيجسد حلم المسلم في أن يعيش حياته على أساس روعي، لهذا يجعل وظيفة الملك الحفاظ على هذه الحياة.

أما الحكيم رويان الذي وجد في سالف العصر في (الليلة الرابعة) فقد بدا أشبه بطبيب مسلم (كان العرب يطلقون عليه لقب الحكيم) أسقطت على لسانه ثقافة العصر العباسي، فاطلع على الكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية، لهذا نجح في شفاء الملك الفارسي من البرص.

كما وجدنا في الليلة (633) ملك فارس (سابور) يعجب بالفارس العربي (غريب) بعد أن أنقذ ابنته (فخر تاج) التي خطفها غول الجبل، ويعذر ابنته التي رفضت خطبة الفارسي (ملك شيراز) من أجله، وأحبّت "هذا البدوي". وقد أثمر هذا الإعجاب تعاوناً في ساحة الحرب، إذ أنجد سابور (غريب) بعد أن تخلى عنه (مرداس) وانضم إلى

³ - "ألف ليلة وليلة" الجزء الثاني، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، الليلة (664)

خصمه (عجيب) "فأمر له بعشرة {قادة} مع كل قائد عشرة آلاف فارس من شجعان العرب والعجم..."⁽⁴⁾

نلمس هنا انفتاحاً على الآخر، سواء عن طريق الزواج (الذي يعني رفض أشكال التعصب العرقي) أم عن طريق نجدة المحتاج (الذي يعني رغبة في المعاملة بالمثل، لهذا سعى الفارسي لردّ الجميل لذلك العربي الذي أنقذ ابنته) لكن اللآفت للنظر أن ملك سابور يرسل نجدة مؤلفة من فرسان عرب وعجم! كأن الليالي تؤكد الوحدة بين العرب والفرس، قبل الإسلام، في مجال الدفاع عن القيم العليا.

التفريق بين الأعجمي المسلم والمجوسي:

لم تقع الليالي أسيرة النمط الواحد في تقديم الصورة، فقد عابشنا في بعض الليالي سوء العلاقة بين العرب والفرس (الأعاجم) فنجد الأم في الليلة (779) تحذر ابنها (حسن) احذر أن تسمع كلام الناس خصوصاً الأعاجم، فإن هؤلاء غشاشون يمارسون صنعة الكيمياء، وينصبون على الناس.

لكن الفتى لا يسمع نصيحة أمه، فيقع ضحية الأعجمي (بهرام) الذي "يبغض المسلمين كثيراً" ويتظاهر بالتدين، فسلب عقل الفتى بقدرته على تحويل النحاس إلى ذهب، لهذا يدعوّه إلى بيته حيث يضع له البنج في قطعة حلوى، وبعد أن يتخدر الفتى نسمع (بهرام) يتفوه بعبارة غاضبة، توحى بالحد "وقعت يا كلب العرب"

يتبادل الفريقان المتنازعان لغة متوترة، إذ وجدنا العربي (غريب) في الليلة (667) يتوجه بمثل هذه العبارة الحاقدة إلى قائد فارسي (رستم) حين دعا النار لتباركه: "يا كلب العجم النار ليست معبوداً". وبذلك تنقل لنا هذه اللغة الحاقدة ملامح صراع عرقي، يتمّ على أساسه رفض الآخر لعدم انتسابه إلى عرقه نفسه!

4 - "ألف ليلة وليلة" ج2، الليلة (635) ص129

إن ما يلاحظ في الليالي أن إزالة سوء التفاهم قد تمّ بالحوار ومعرفة معتقد الآخر، فقد أعلن الفارسي إسلامه بعد أن عرف نزاهة الدين، وانقلب على جيشه الذي كان قائداً في صفوفه، بل يفاجأ المتلقي بزوال الحواجز كلها بين العرب والأعاجم، فيحتل الأعجمي أعلى مرتبة في جيش (غريب) إذ نسمعه يقول "أنا رستم مقدم أبطال العرب والعجم! هل من مبارز؟" فهو يتحدث بصوت القائد العام الذي يجتمع تحت لوائه (الذي هو لواء ديني) العرب والعجم!

إذا لم يكن التوتر بين العرب والعجم على أساس عرقي، وإنما على أساس عقائدي، لهذا يزال التوتر بالإيمان بالله، وقد وجدنا في الليلة (797) تأكيداً لهذا القول على لسان (حسن) الذي خطفه (بهرام) "يا أمي ما كان أعجيباً بل كان مجوسياً يعبد النار دون الملك الجبار".

نلاحظ لدى الأم خطأً بين المجوسي والأعجمي، يأتي ابنها ليصحح لغتها أي مفاهيمها المغلوطة عن الأعاجم، بناء على تجربته الصعبة مع المجوسي، فنحس رغبة المؤلف (الفارسي المسلم) في الدفاع عن الذات، وتصحيح الصورة المشوهة لدى العوام عن الأعاجم.

وقد وجدنا الأعجمي في (الليلة 879) يشتري جارية (مريم الزنارية) يعرض عليها الإسلام فتسلم، ويعلمها أصول الدين والفقهاء! ويكافئها على عنايتها به في أثناء مرضه، فيحقق رغبتها في أن يبيعه لمن ترضاه سيداً لها!!

وهكذا لحقت بالأعجمي الصفات الإيجابية، أمّا الصفات السلبية فقد كانت من نصيب المجوسي، الذي "كلما قدر على أحد من المسلمين يهلكه، فهو خبيث لنسيم كيمياوي" يخطف شباباً مسلمين بالسحر والخداع، لهذا يستحق القتل على يد (حسن) بعد صعوبات كثيرة، كي تنتصر قيم الخير على الشر، بانتصار المسلم على

المجوسي، هنا تخضع الصورة للتمييط، إذ تتم الغلبة للمسلم دائماً على المجوسي، مما يعني استعلاء الأنا المسلمة على الآخر!

وفي الليالي التي تمتد من (227) حتى (237) نجد عودة لشخصية بهرام المجوسي، لكن عبر سياق جديد، وإن لاحظنا تكرار بعض الأحداث، مع تغير أسماء الأبطال، إذ يحبس بهرام (الأسعد) ليذبحه في عيد المجوس، لكن ثمة إضافة، وهي توكيل ابنته بتعذيبه، فتعجب به، وتسلم على يديه، كما أن خاتمته هنا لم تعد القتل على يد البطل، فقد استطاع الأجد أن يقبض عليه، وحين أراد الملك قتله، أعلن إسلامه، وأصبح صديقاً للأجد والأسعد!

واللافت للنظر في هذه القصة تحول (بهرام) إلى راوٍ مشارك في الحدث، إذ يروي قصة (نعمة الله ونعم) في الكوفة، فتبدو صورة الأعجمي مشرقة، إذ هو طبيب ماهر لا يعجزه مرض، أفلح في شفاء جسد الشاب العربي (نعمة الله) وكى يشفي روحه، يجعله ابناً له، ويعمل على رد زوجته المسروقة (نعم) التي خطفت من الكوفة إلى دمشق، فيسافران إليها، ويعملان معاً في دكان العطارة في دمشق.

نجد الراوي، الذي نرجح أن يكون فارسياً، يضيف تفصيلاً مهماً فيجعل الفارسية لغة التواصل بين بهرام ونعمة الله، لأن الشاب يتقنها "على عادة أولاد الأكابر" فلا يكتفي بأن يسبغ النبل الاجتماعي على هوية الأعجمي بل يسبغه على لغته!

لعل تغير صورة الأعجمي (بهرام) وحرص الراوي على تقديم صورة مشرقة نقيضة لما رأيناه قبل قليل، تبين لنا أن عدة مؤلفي، بينهم الفارسي والعربي، شاركوا في تأليف الليالي، لهذا تجاوزت صورة (بهرام) إطارها السلبي المجوسي، حين أصبحت مسلمة.

وقد لاحظنا في (الليلة 16) أن ثمة رغبة لا شعورية لدى الراوي المسلم في عقاب جماعي للمجوس، لهذا وجدنا جميع أهالي المدينة المجوسية قد مسخوا تماثيل من

الحجارة السوداء، إلا شاباً (ابن الملك) ربته مربية مسلمة على تعاليم الإسلام، وطلبت منه أن يكتنم دينه، وكي لا يبدو العقاب ظالماً، يأتي فجأة، فقد سبق بإنذار، أتاها عن طريق صوت شبيه بالرعد القاصف، ودعاهم للإيمان مدة ثلاث سنوات، لكن ملكهم أمرهم بالعصيان "فنزل عليهم المقت والسخط من السماء..."

تتكرر الصورة المشوهة للمجوس في قصة السندباد، ومن الملاحظ أن الأسطورة أسهمت في رسم هذه الصورة المشوهة!! ففي الليلة (551 و552) حين يتيه السندباد يجد نفسه وزملاءه أسرى بين مجوس ملكهم غول، يرعونهم مثل البهائم، كي يسمنوا، ويقدموا طعاماً للغول، لكن السندباد ينجو من الذبح، لأنه لم يذق طعامهم الذي يُفقد الوعي، لهذا استطاع الهرب!

هنا نتساءل: هل السبب في هذا التشويه هو بعد بلاد المجوس عن بلاد المسلمين، مما أفسح المجال للخيال الأسطوري أن يسهم في رسم ملامح الصورة؟ إذ من الملاحظ أنه كلما بعد الفضاء المكاني نشط خيال الراوي المؤلف، نظراً إلى قلة العلاقات الإنسانية التي تزيل الكثير من سوء التفاهم، باعتقادنا، بين الحضارات والشعوب.

البرامكة ولامح الصراع العرقي:

لعل ما حدث للبرامكة الفرس من محنة على يد السلطة العباسية، قد نشط الخيال المتعاطف معهم، ولاسيماً أنهم تمتعوا بصفات تؤهلهم للصدارة، وقد أسهمت بعض الليالي، التي نرجح أن مؤلفيها من الفرس في إبراز المكانة المهمة التي احتلوها، حتى تكاد تتنافس مكانة الخليفة هارون الرشيد!

ورغم ما يشوب العلاقة بين العرب والفرس من توتر، نجد إحدى الصور تجسد قدرة البرامكة على إنقاذ الإنسان (العربي وليس الفارسي) في أية محنة تواجهه، في حين يعجز العرب عن تقديم المساعدة، ففي الليلة (392) وجدنا (صالح) ينصح صديقه

سعيد بن سالم الباهلي باللجوء إلى البرامكة ليخلصوه من محنته (دين كبير) فيجيبهم "ومن يقدر على احتمال تكبرهم، ويصبر على تجبرهم؟ فقيل له: تحمل ذلك لأجل إصلاح حالك."⁽⁵⁾

وبذلك يذكر الراوي الموضوعي، على لسان العربي، بعض صفات البرامكة المنفرة (التكبر، التجبر) لكن سرعان ما ينفي فعلهم النبيل الدلالة السلبية لهذه الصفات (التي قد تكون بسبب سوء التفاهم بين العرب والفرس) إذ يذكر الراوي أنهم يغيثونه بأضعاف أضعاف ما يغيثه الخليفة، فيتحول تكبرهم إلى نوع من الاعتزاز بالذات، ويمحو الكرم الدلالة السلبية لصفة (التجبر)

وقد بلغ مدح البرامكة أقصى درجات المبالغة في (الليلة 299) إذ يستمر (جعفر البرمكي) في فعل الخير بعد أن صلبه هارون الرشيد، فقد جاءه بدوي اعتاد على عطاياه بعد مدحه (ألف دينار تكفيه عاماً) فوجده مصلوباً، فبكاه، ومدحه، ثم نام، فجاءه جعفر في المنام، وطلب منه الذهاب إلى أحد تجار البصرة، وحدد له اسمه، وأعطاه أمانة (هي الفولة) وحين يذهب إلى هناك، يكتشف أن هذا التاجر كان بائع فول فقيراً، التقى به جعفر في يوم ماطر، أشفق عليه ووزن الفول وأعطاه ذهباً مقابله، لا تقف المبالغة في رسم صورة الكرم عند هذا الحد، بل تزداد حدة، حين تبقى فولة، فيشتريها بأضعاف ما دفعه! لهذا نسمع صوت الراوي المتعاطف مع محنة البرامكة يقول "انظر مكارم جعفر والثناء عليه حيا وميتاً، رحمة الله عليه."

إذا ثمة رغبة لدى المؤلف الفارسي في الحفاظ على نقاء صورة البرامكة، بعد أن نكل بهم الرشيد، فسعى عبر السرد والمبالغة في الخيال إلى ترسيخ مآثرهم في الأذهان، فإن قتلهم الخليفة ومحا صورتهم الجسدية، فإن ما فعلوه يُبقي ذكرهم حياً

⁵ - "ألف ليلة وليلة" الجزء الأول، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ، ص 645

على مر الزمان، وبذلك نجد الراوي، الذي نرجح أيضاً أنه فارسي، يعمل على تعزيز صورتهم الإيجابية في الأذهان.

ويصر الراوي على نحت صورة مثالية ليحيى البرمكي، فهو يستعلي عن الصغائر، ويعذر من قابل إحسانه بالإساءة، إذ يقدر لحظات الضعف البشري، رغم ما يصيبه بسببها من أذى، وبذلك يتجسد مثلاً للنبل في ذهن المتلقي، فيتعاطف معه، ويوافق على قول (صالح): لا يجري في الفلك السائر بإبراز رجل إلى الوجود مثلك، فوا أسفا كيف يتوارى من له خلق مثل خلقك، وكرم مثل كرمك" (6)

يستمر المؤلف في المبالغة في رسم صورة مثالية للبرامكة، ففي (الليلة 307) وصل تصوير نبل (يحيى البرمكي) إلى درجة تتجاوز فيها القدرات البشرية، فقد بدا متسامحاً وكراماً مع رجل يزور على لسانه رسالة إلى عدوه، الذي يرسل له مستفسراً، فلم يكذبه، بل يجعل فعل السوء بادرة خير، ويراه سبباً في الصلح بينه وبين عدوه، لذلك يأتي الرجل إليه قائلاً "أنا من كنت ميتاً من جور الزمان، فأحييتني من رمس النوائب..."

أمّا عن كرمهم فنجد أحاديث عنهم أشبه بالأساطير، التي لا يمكن أن يقبلها المنطق! من ذلك أن رجلاً لجأ إلى (يحيى) في (الليلة 391) قائلاً: "أنا محتاج إلى ما في يدك، فأمر خازن ماله أن يرسل له كل يوم ألف دينار، وأن يكون طعامه خاص طعامه..."

هنا نتساءل: هل يريد المؤلف الفارسي بمثل هذه القصص التي تتحدث عن كرم البرامكة، أن يزري بالعرب، وبمأثرتهم الأولى التي عرفوا بها، وكانت مبعث فخرهم، كي يعزّر تفوقهم عليهم؟

⁶-المصدر السابق، ج1، الليلة (305) ص538-539

نلمح كذلك في الليالي بؤادر الصراع السياسي بين العباسيين والبرامكة، إذ لاحظنا نزاعاً بين أولادهم، الذين كانوا، فيما يبدو، أنداداً لأولاد الخليفة، فقد تنازع جعفر بن يحيى البرمكي والأمين بن الرشيد على جارية، فأخذها الأمين، فلم يظهر جعفر غيظه "لشرفه، وعلو همته، ولم يبدِ تغييراً في منادمتيه... فملاً الأمين زورقه مالا وجواهر... هكذا هم الأكابر رحمهم الله." (7)

صحيح أننا نلاحظ تقدير الأمين لهذا التصرف، لكن الراوي يبدو متعاطفاً مع جعفر، لهذا يسبغ عليه من الصفات ما لم يسبغها على ابن الخليفة (الشرف، علو الهمة، ...) بل لاحظنا حرصه في خاتمة كل قصة عنهم تكراراً أشبه باللائمة التي تتحدث عن مناقبهم، وتترك انطباعاتاً راسخاً بعلوهم وبروعة أخلاقهم "فانظر إلى هذا الكرم من هؤلاء رحمهم الله تعالى." وفي قصة أخرى يختم قائلاً: "وهكذا هم الأكابر رحمهم الله" ثم يختم الراوي قائلاً: "فضائل البرامكة لا تعد ولا تحصى، ومناقبهم لا تنقضي" (8)

إذا كان الصراع السياسي قد حسم لصالح العباسيين، فإن البرامكة وجدوا من يناصرهم في ليالي "ألف ليلة" ويحسم الصراع لصالحهم على صعيد السرد! فقد رسخ الراوي الفارسي صورة رائعة عنهم، ولاسيما أنه اختار فن القصص الشعبي، الذي يسهل تناقله بين الرواة، ويؤسس لثقافة شعبية تعتمد التداول الشفهي، مما يضمن سرعة الانتشار، إذ تحول هذا الفن إلى وسيلة إعلامية تعزز وجهة نظر البرامكة، مع أنها تعارض وجهة النظر الرسمية للدولة العباسية، ومن هنا عمد الراوي إلى لغة المبالغات في صفات البرامكة الحميدة، ليكسب تعاطف المتلقي مع محنتهم.

7 - المصدر السابق نفسه، ص 44

8 - المصدر السابق نفسه، الليلة (391) ص 643

وهكذا استطاعت دراسة صورة الآخر أن تساعدنا على كشف شركاء للعرب من الفرس أسهموا في كتابة بعض قصص "ألف ليلة وليلة"، لكننا لم نتبين هويتهم لكونهم استخدموا اللغة العربية، التي هي لغة الحضارة الإسلامية.

2- الآخر الهندي:

كان السفر، وما زال، إحدى وسائل معرفة الآخر، وهذا ما جسّدته لنا "ألف ليلة وليلة" التي تعدّ في أحد وجوها كتاب رحلات ومغامرة، أتاحت لنا فرصة المعايشة اليومية، ورسم صورة للآخر المختلف انطلاقاً من نظرة الغريب الذي يحاول الفهم من أجل التواصل الإنساني.

وقد كانت الهند إحدى البلدان التي وصل إليها الرحالة المسلمون والتجار، فشكّلوا أروع صورة للأنا التي تنتمي للحضارة الإسلامية، التي تغلب الجانب المعرفي على الجانب المادي، وقد ظهر ذلك واضحاً في الليلة (771) حين ينقذ سيف الملوك ابنة ملك الهند، فيعرض عليه أن يأخذ ما شاء من المال، لكنه يرفض قائلاً "غرضي أن أتفرج في هذه المدينة...". ومن المعروف أن كثيراً من بلدان آسية قد أسلمت عن طريق التجار المسلمين، نظراً إلى ما جسّدوه من أخلاق الإسلام!

تتجلى المعايشة اليومية للهنود في (الليلة 541) إذ نتعرف عليهم بشكل دقيق، فهم أجناس مختلفة "منهم الشاكرية، وهم أشرف أجناسهم لا يظلمون أحداً ولا يقهرونه، ومنهم جماعة البراهمة، وهم قوم لا يشربون الخمر أبداً، وإنما أصحاب حظ وصفا ولهو وطرب وجمال ومواش..."⁽⁹⁾

ولو تأملنا ملامح الصورة الإيجابية التي قدمها المؤلف في الليالي للهنود لوجدناها لا تبتعد عن صورة المسلمين، فالهنود مثلهم لا يشربون الخمر، لكنهم يحبون اللهو

⁹ - "ألف ليلة وليلة" ج2، ص6

والطرب! ولمّا كانوا يتصفون بصفات تقرّبهم من عقيدة الرحالة المسلم، لهذا لا يجد مانعاً في الاستقرار بين ظهرانيهم، ومصاهرتهم، ففي (الليلة 552) وافق السندباد على عرض الملك، الذي أعجب بأخلاقه (المستمدة من الإسلام) بالزواج بهندية، لكن الملاحظ أنه ظلّ متمسكاً بتعاليم دينه، فتمّ الزواج وفق طقوس إسلامية، إذ أحضر القاضي والشهود.

نعائش عبر علاقة الزواج عادات هندية، يستهجنها المسلمون، وتبرز غرابتها حين تطبق على الأغيار، وبذلك ظفرنا عبر هذا الزواج بمغامرة للسندباد، حين دُفن مع زوجته حياً، كما ظفرنا بتوضيح الراوي لعاداتهم، فنسمع صوته المتعاطف، يبيّن الهدف من دفن الزوجين معاً "ألا يفرق الموت بينهما" ومما يثير الدهشة أنهم لا يميّزون بين الرجل والمرأة في هذا المصير!

كما نتعرف عبر الليلي بعض معتقداتهم، فهم يعبدون الشمس، لهذا سمعنا في (الليلة 518) الملك الهندي (كفيد) يلعن جنوده المهزومين "لا باركت فيكم الشمس، بل غضبت عليكم غضباً شديداً" فيظهر هنا السياق الثقافي المهيمن على الراوي، إذ يستعير الصيغة الجاهزة في لغة المسلمين بعد أن يحورها، لتتناسب مع معتقدات الهنود الذي يؤمنون بالشمس، ويجعلونها تحل محل الله تعالى.

تترسخ في ذاكرة المتلقي، عبر الليلي، صورة للهند بلد السحر والأساطير، إذ تنتسب إليها الكائنات الخرافية، فنجد غول الجبل في (الليلة 628) الذي يأكل الناس، ينتسب إلى أب هندي (من أولاد حام) وقد عمّر الهند، لهذا سميت به.

3- الآخر الإفرنجي:

كتبت الليلي، باعتقادنا، في عصر ساد فيه صراع بين الإفرنج والمسلمين، أي في مرحلة الحروب الصليبية، لذلك بدا الآخر الإفرنجي أكثر حضوراً من المسيحي! ولاسيماً أنه بدا مهدداً لأننا المسلمة، في حين بدا المسيحي متعايشاً معها، وعلى هذا

الأساس لاحظنا حضور الإفرنجي في عدة ليالٍ، مثلاً حكاية الملك النعمان مع ولديه شركان وضوء المكان (من ليلة 44 إلى الليلة 145) وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية (من ليلة 863 إلى الليلة 895)

ومع ذلك إن ما يلفت النظر أن العلاقة بين الإفرنج والمسلمين لم تكن محكومة بالتوتر والصراع دائماً! إذ قدّمت لنا "ألف ليلة" صورة للتعايش مع الآخر، سواء في بلاده أم في بلاد الشرق، فقد رحل الصديقان (أبو قير وأبو صير) من الإسكندرية في (الليلة 934-935) عبر البحر إلى إحدى مدن الإفرنج من أجل البحث عن مهنة يعيشان منها، فلاحظ (أبو قير) الذي يعمل في الصباغة، أنهم "لا يعرفون من الألوان سوى اللون الأزرق" فيعرض العمل عندهم، ويعرفهم بقية الألوان، فيرفضون، عندئذ يحدث الملك بذلك، الذي يعجب بالفكرة، فيعطيه مبلغاً من المال، كي يفتح دكاناً، ويعرض بقية الألوان.

أمّا صديقه (أبو صير) فقد أراد الذهاب إلى الحمام، فلم يجد، ولاحظ أن سكان المدينة يغتسلون في البحر، فبين للملك بأن مدينته لا تكون كاملة إلا "بالحمام" فيقتنع برأيه، ويعطيه مكاناً ومالاً، ليبنى حماماً، وحين انتهى من بنائه، دعا الملك إليه "وأخرج من جسده الوسخ مثل الفتائل". فزاد إعجاب الملك به، وقال "إن مدينتي ما صارت مدينة إلا بهذا الحمام...". وطلب منه أن يأخذ مقابل هذه الخدمة من كل فرد ألف دينار، فرفض، لأن "الناس فيهم الغني وفيهم الفقير".

نلمس هنا الفارق الحضاري بين المسلمين والإفرنج، كما نلمس انفتاح الملك ورغبته في التعلّم منه، لهذا يقدم لكل من (أبي قير وأبي صير) كل التسهيلات الممكنة.

وقد لاحظنا كيف أن الراوي وظّف بعض التفاصيل اليومية في رسم صورة الآخر، فوصف عملية تنظيف الملك في الحمام، وكيف تحلّص من الأوساخ العالقة

بجسده، وقد استخدم الراوي تشبيهاً (مثل الفتايل أي مثل الخيطان السمكية) للكناية عن كثرة الوسخ، وهو تشبيه مازلنا نستخدمه إلى اليوم في اللهجة المحكية! وقد أسهم هذا التشبيه في رسم صورة دونية للآخر (القنر) كي يعلي شأن الأنا النظيفة المتحضرة، والمدهش أن الراوي جعل الملك (أي أعلى الهرم الاجتماعي) بمثل هذه القذارة، في مقابل المسلم العادي الذي يقوم بتنظيفه (أبو صير)!

لهذا لن نستغرب أن تتغير صورة المدينة في عيني الملك، بعد أن أحسّ بالانتعاش، فانعكس الإحساس الداخلي على الفضاء المكاني، لهذا صرّح لنا أن مدينته أصبحت مدينة راقية، بل استحقت اسمها بفضل الحمام، لهذا طلب (من أبي صير) أن يتقاضى مبلغاً كبيراً مقابل هذه الخدمة، لكنه يرفض، فالدفع حسب الاستطاعة، لأن من حق كل الناس التمتع بالنظافة.

وقد شوّش هذا التعايش مع الآخر (الإفرنجي) الصراع والحروب، فبدأت الليالي انعكاساً لعصر مأزوم، يسوده التوتر بين المسلمين والإفرنج!

أثر الحروب في تشويه الصورة:

لم تكن مجاورة المسلمين لبلاد الإفرنج مبعثاً للطمأنينة، لهذا حين أراد موسى بن نصير السفر، في الليلة (568) نصحه أحد الشيوخ أن يستخلف رجلاً مجاهداً مثله لقرب البلاد من العدو، وقد عددت لنا الليالي بعض الدول المجاورة (الفرنسيين والنمسيين والقسطنطينية) وقد استمدّ الراوي اسم بطله من نسق تاريخي يناقض اللحظة المهزومة التي يعيشها، فقد اختار بطل الفتح الإسلامي للأندلس، لعله يستمد قوة معنوية في مواجهة الإفرنجي .

وفي (الليلة 312) لاحظنا سيادة روح التسامح بين المسلم والنصراني، وقد شاعت بفضل التعايش اليومي، فإذا حدث أي خلل، فالسبب يعود (في الليالي) إلى الآخر

الإفرنجي، حين يطلب نصراني من علي شار ماء، فيقول في نفسه "هذا رجل ذمي، وقصدي في شربة ماء والله لا أخيبه".

أطلق على النصراني لقب (ذمي) مما يعني أنه استخدم مصطلحاً ذا دلالة دينية، يحث المسلم على التزام حقوق الله وعهده في التعامل مع الآخر (لأنه أصبح في عهد الله وذمته) لهذا يقسم المسلم بينه وبين نفسه بألا يرفض للذمي طلباً، لكن الآخر يستغل هذا التسامح، فيقوم بخداعه وسرقة جاريته (زمرده) كي يعيدها إلى أخيه، الذي رفضته وهجته، فيتم تعذيبها كي تتخلى عن الإسلام! فترفض قائلة: "والله لو قطعت لحمي قطعاً ما أفارق دين الإسلام... وقد قال الحكماء مصيبة في الأبدان ولا مصيبة في الأديان..."⁽¹⁰⁾

نلمس هنا ملامح صراع ديني، حيث يتم قهر المختلف دينياً، وإلغاء خصوصيته، فيتحول انتقام الرجل من المرأة التي رفضته، وقبلت برجل مختلف، إلى انتقام ديني، لهذا أراد أن يجبرها على تغيير دينها!

إذاً نعتقد أن تغير الدلالة الإيجابية التي لمسناها للقب (الذمي) كان بسبب الحروب بين العرب والإفرنج، فأصبح "أزرق العينين" تلحق به ألقاباً سلبية من الناحية الدينية "الإفرنجي ملعون عدو الدين" "الملك الملعون".

تكررت صورة الملكة الإفرنجية المحبة للمسلم (إبريزة) في (الليلة 47) لكن شخصيتها تبدو أكثر حضوراً وإقناعاً، فقد لمسنا إنسانيتها في تعاملها مع الآخر، وذلك حين يقتحم (شركان) خلوتها مع صديقاتها لا تعاقبه إشفافاً منها "على الغرباء" وتطلب منه أن يحلف بأن يصارعها بعيداً عن السلاح، فيحلف بالنبى، لكنها تطلب منه أن يحلف "بمن ركّب الأرواح في الأجساد" فهي واعية، تدرك بأن الله تعالى يجمع بين المسلم والمسيحي، كما تبدو مثقفة بثقافة عصرها، فقد "قرأت الكتب وتعلمت الأدب من

¹⁰ - "ألف ليلة وليلة" ج1، الليلة (314) ص550

كلام العرب" دون أن تبدو مأخوذة بها، لهذا وجدناها تنتقد الملك (عمر النعمان) والد (شركان) لأن لديه اثني عشر قصرأ، وضع في كل قصر ثلاثين جارية، فاجتمع له ثلاثمئة وستون جارية على عدد أيام السنة، وهو إن ظفر بها فلن يتركها، والمدهش تمادياها في النقد، فهي لا تكفي بنقد الملك بل تنتقد عسكره أيضاً، إذ لم ترَ تربيتهم "تربية الملوك وإنما طوائف مجتمعة"

وحيث ترى شجاعة (شركان) في قتال قومها، تعجب به، وترتدي ملابس القتال، فيسألها عن السبب فنقول: "حرصاً عليك من هؤلاء اللئام" فقد تحركت مشاعر المرأة تجاه الرجل، وبدأت استقلاليتها بالتلاشي، لذلك تعلن انتماءها للحبيب، وتتقلب على أهلها فتصفهم بـ "اللئام"

ستكرر في الليلة (878) عشق ابنة أحد ملوك الإفرنج (مريم الزنارية) لشاب مسلم (علي نور الدين) لكن بتفاصيل مختلفة، فقد أصبحت جارية بعد أن وقعت في الأسر، بعد أن هاجم المسلمون مركبها في البحر، وباعوا كل من فيه من الرجال والنساء، وقد اشترها الشاب (علي نور الدين) بكل ما يملك (ألف دينار) وحين يعاتبه صديقه على صرف كل ماله، يرد عليه: إنها من أولاد الإفرنج! فنلمس إعجاباً مضمرأً بجمال المرأة الغربية!

تبدو هذه الشخصية (مريم) ذات أهمية خاصة، ليس بسبب انتسابها إلى ملك الإفرنج فقط، بل لما تقوم من أفعال تعلمتها بفضل انتمائها إلى "مدينة واسعة الجهات، كثيرة الصنائع والغرائب والنبات، تشبه مدينة القسطنطينية..." فهي تتقن الصنائع الغربية التي تغني (علي نور الدين) بعد أن بذل كل ماله ليشترها! لذلك لم نجد العلاقة بينهما علاقة سيد بجاريته، إذ اعتذر (علي) منها حين اضطر لبيعها إثر خديعة (من قبل الوزير الأعور في مملكة والدها) فيقول لها "والله يا سيدتي مريم إنه قد جرى القلم بما الله حكم..." وبذلك ارتقت الجارية إلى مرتبة السيدة بفضل سلوكها وعملها،

فيتكبد (علي) متاعب جمّة من أجل إعادتها إليه، وبذلك تظفر المرأة بمعاملة تتجاوز ما تطمح إليه، فقد اتسمت بسمات مشرقة، تنأى عن الصورة التقليدية، التي ترسمها المخيلة لبنات الملوك، فهي تفخر بعملها لا بنسبها.

لا تختلف المفاهيم الإفرنجية المتعلقة بالمرأة عن المفاهيم الشرقية، فمثلاً حين يكتشف الملك أن ابنته فقدت عذريتها، يستشير كبار رجاله، الذين يخبرونه بأنها "تنجست من المسلمين، وما يطهرها إلا ضرب مئة" منهم، لهذا بات يستولي على مراكب التجار المسلمين، ويأمر بضرب أعناقهم جميعاً إيفاء للندى! ويتقدم لها الوزير الأعور في (الليلة 885) وحين يبني لها قصرًا نجده ينذر بأن يذبح ثلاثين مسلماً.

وفي (الليلة 889) تدعو (مريم التي أصبحت مسلمة) ربها أن ينقذها من الوزير "اللهم لا تبلغه مني أرباً، ولا تحكم علي بالنجاسة بعد الطهارة." فلا يندسها وزير والدها بالزواج منها، وبذلك يبدو الآخر المختلف في الدين في صورة مشوهة بسبب الدماء ومشاعر الكراهية! وبذلك تشوّه الحرب تعاليم الدين الإنسانية، فتزرع الحقد عوضاً عن المحبة!

نلاحظ أن (أنا المؤلف المسلم) تجمل ذاتها دائماً، فتجعل النجاح حليفها سواء في الحب أم في الحرب! لهذا نجحت (مريم) في الهرب من (الوزير الأعور) مع (علي نور الدين) وحين يرسل والدها جيشاً بقيادة ثلاثة من أخوتها، كي تترك الإسلام، تقول في ساحة الحرب: "والله لست براجعة عن دين محمد... هل من مقاتل ..."

تتحول (مريم) التي وجدناها قبل قليل تتقنن في صنعة (الزنانر) إلى فارسة، تنتصر على إخوتها، وتقتلهم جميعاً نصرة لدينها، لذلك لم يجد الملك وسيلة، يسترد فيها ابنته، سوى الاستعانة بأعلى سلطة لدى المسلمين (الخليفة هارون الرشيد) فيعرض عليه مقابل استردادها مغريات تصل حد اللامعقول، كي يبرز الراوي عظم الإثم الذي ارتكبه (مريم) على لسان والدها، لهذا هو على استعداد ليهب الخليفة

"تصف مدينة روما الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل إليكم خراجها" هنا يقع الراوي المتحمس للإسلام في التناقض، في رأينا، فكيف يمكن لملك يرفض إسلام ابنته، أن يتبرع بنصف مدينته، كي تصبح ملكاً للمسلمين، يبنون فيها المساجد، التي هي رمز للدين الذي يحارب ابنته على اعتناقه! هنا يلمس المتلقي أثر الحماية الدينية على لغة الراوي المسلم، فيسعى إلى حضور الرموز الإسلامية في بلاد الأعداء، كما يبرز في الوقت نفسه تشبث الآخر بدينه إلى درجة يضحى فيها بنصف مدينته، ليعيد ابنته إلى عقيدتها.

وقد بينت الابنة سبب رفضها لرغبة أبيها "هل بوسعك يا أمير المؤمنين أن تقبل كتاب ملك الملحدين، وترسلني إلى بلاد الكافرين الذين يشركون بالملك العلام،..."⁽¹¹⁾.

نجد هنا صورة المرأة المثقفة والفقيرة في الدين، التي آمنت بالدين ليس فقط من أجل الحبيب (علي)، كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن لأنها مسلمة!

إن تقديم هذه الصورة للمرأة الإفريقية التي تتعلق بالإسلام وتحارب من أجله أهلها يؤكد الرغبة في تمكين الثقة بالذات عبر السرد القصصي، التي بدأت تنزعزع ولاسيما بعد أن احتل الإفرنج جزءاً من بلاد المسلمين، وتعكس رغبة مكبوتة في أن يرى المسلمون عدوهم مهزوماً، سواء بالحب أم في الحرب!

لهذا تجلت لنا صورة المسلم المنفوق في مجال العقيدة الدينية، يحافظ عليها، مهما تكن المغريات! في حين يتخلى الآخر عن دينه!!

تنقض الليالي المقولة التي تدعي بأن نقطة ضعف المسلم هي المرأة، لهذا كثيراً ما نجد الإفرنجي قد استخدمها وسيلة لفتنته عن دينه، فيخيب ظنه، كما في (الليلة 475)

¹¹ - "ألف ليلة وليلة" ج2، الليلة (893) ص496

حيث لم يستطع الروم هزيمة المسلمين في الشام بسبب شجاعة أخوين شابين، فاحتال الروم عليهما، وقتلوا أحدهما وأسروا الآخر، وقد أرادوا الاحتفاظ به في الجيش، ليستفيدوا من شجاعته، ويقا تل إلى جانبهم، وهذا لن يكون إلا إذا دخل في دين النصرانية، لهذا أرسلوا له ابنة أحد القواد! فلم يفتن "لعبادته وانصرافه لقراءة القرآن، فافتنت به الفتاة وأسلمت". فالمسلم لا يتخلى عن دينه حتى في الأسر، أي في لحظات الضعف الإنساني! لأنه يجسد قوة معنوية يرى فيها الأمل في الانتصار على عدوه، وبذلك تقدم لنا الليالي القوة الداخلية، التي يتحلى بها الشباب المسلم، فتعكس رغبة مكبوتة في رسم صورة مشرقة له، كي يستطيع مقاومة العدو.

وقد لاحظنا كيف فرضت الحرب أفكار العنف ولغة الإقصاء، فلمسنا في الليالي رغبة كل من الطرفين في إلغاء الآخر أو بالأحرى إفتائه، وقد تجلى ذلك في شيوخ لغة عدائية، لهذا حلف الملك (لوقا) بأن يفرغ الأرض من المسلمين.

لكن ميزة الليالي أنها بدت مخلصمة للواقع المعيش في بعض وجوهها، لهذا لم نلمس مبالغة في إعلاء شأن الذات، إذ لا نجد الإفرنج وحدهم يقعون في الأسر، بل وجدنا المسلمين يقعون أيضاً، كما حدث مع قنصل جنوة الذي أسر أربعين مسلماً، ثم قتلهم، ولم يبق منهم سوى (علاء الدين) للخدمة في الكنيسة!

كما نلمس فيها إعجاباً بشجاعة الإفرنج، الذين يملكون قلوباً "أقوى من الصخر" ولم يجردهم الراوي المسلم من القيم العليا التي يؤمن بها كالشرف، لهذا تنثور ثائرة الملك (إفريدون والد إيريذة) بعد أن أزال بكارتها (عمر النعمان) فيصرخ، كما يصرخ أي أب شرقي غيور على شرفه، "لابد من أن آخذ ثأر ابنتي، وكشف العار عن عرضي!!"

يلاحظ في الليالي أن الهدنة بين المسلمين والإفرنج تعني في كثير من الأحيان زوال العداوة، فتحلّ بشارات السلام (تبادل الهدايا، طلب النجدة، الزواج...) إذ نجد

ملك الروم في (الليلة 44) يهدي طباحة لملك المسلمين عمر النعمان ، ثم يستعين به ملك قسطنطينية حين سُرِق له مركبان محملان بالنفائس! وقد عايشنا هذا المفهوم للهدنة في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ¹² الذي يعدّ كتاباً أقرب إلى السيرة الذاتية، فهو أكثر مصداقية، باعتقادنا، من الليالي، لكونه يكاد يتعد عن التخيل!

أمّا على صعيد الناس العاديين، فنجد، رغم الحرب، شيوع العلاقات الإنسانية فيما بينهم، نتيجة الاحتكاك اليومي، فمثلاً وجدنا مسلماً من الصعيد في (الليلة 495) جاء في تجارة إلى عكا، يعجب بإفرنجية، ويطلب وصالها، فتواعده سراً مقابل (خمسین ديناراً) لكنها حين تأتي يحاسب نفسه قائلاً "كيف تعصي الله؟" فيتركها ليكرّر طلبها عدة مرات، ويكرّر تعففه، حتى وصل المبلغ إلى خمسمئة دينار، ثم سمع إنذاراً بانقضاء الهدنة وإمهال المسلمين أسبوعاً، حتى يقضوا أشغالهم وينصرفوا إلى بلادهم، فيخرج متحسراً على الإفرنجية التي سلبت قلبه وماله!!

لكن الوازع الديني للراوي المسلم لا بد أن يكافئ الصعيدي على عفته! لهذا سيلتقي تلك المرأة بفضل متاجرته في "جوارى السبي" فاشتراها بعشرة دنانير بعد أن رفضت أن تراه بخمسمئة، لهذا أعلنت إسلامها قائلة "هذا سر دينك الصحيح" فأعتقها وتزوجها، وحين وقعت اتفاقية ردّ الأسرى، ألحوا بعودتها، فطلبت مقابلة الملك الناصر (صلاح الدين) الذي دعاها أيضاً للعودة إلى أهلها، فأعلمته برغبتها في البقاء مع زوجها المسلم، وقد أرسلت لها أمها المال الذي أخذته من الصعيدي في صندوق! وهكذا لم تكن مكافأته معنوية فقط، بل مادية، إذ يردّ إليه المال الذي أنفقه عليها، ويوحي لنا في الوقت نفسه بأمانة الأم الإفرنجية التي لا تستولي على مال ابنتها، رغم زواجها من مسلم!

¹² - أسامة بن منقذ "كتاب الاعتبار" مذكرات دقق نصوصها وفصل فقرها وقدم لها وعلق عليها د. عبد الكريم الأشر، المكتب الإسلامي، ط2، 2003

وهكذا لم نجد صورة الآخر الإفرنجي مشوّهة دائماً، فالراوي ابن الحياة اليومية، يرصد ما فيها من علاقات متوترة تتمّ عن حقد وكرهية، كما يرصد علاقات متسامحة يسودها الحب والتسامح.

هنا يحسن بنا أن نتوقف عند صورة المسيحيين أبناء الشرق في "ألف ليلة وليلة" لنرى هل تختلف عن تلك التي رسمتها للإفرنج؟

صورة إيجابية:

نلمح في الليالي تعايشاً بين سكان المدينة التي تنتمي للحضارة الإسلامية، فالسحر الذي نجده في (الليلة 8) يشمل جميع الأصناف الذين يسكنون فيها من مسلمين ونصارى ويهود ومجوس، وحين يفكّ المسلم السحر، يفكّه عنهم جميعاً!

أتاحت لنا الليالي بسبب تقديمها تفاصيل الحياة اليومية للبسطاء من الناس أن نعايش بعض الانتهاكات التي يتعرض لها النصارى، إذ نجد في (الليلة 991) علي (ابن العطار) ومعروف الإسكافي في طفولتهما يسرقان كتباً للنصارى، فأمسكوا (علي) وقالوا لأهله "إذا لم تمنع ولدك من أذانا شكونك إلى الملك"

للهولة الأولى تبدو لنا هذه الانتهاكات قليلة الشأن، لأنها تقع على يد أطفال لا يدركون ما يفعلون، لكن النصارى يرفضون التعدي عليهم حتى من الأطفال، لهذا يهددون المسلمين باللجوء إلى السلطة الحاكمة (الملك) التي تبدو ملاذاً لهم من الأذى، لكونها قادرة على إنصافهم.

هنا تبرز لنا الليالي، عبر سيرورة الحياة اليومية، علاقات يشوبها بعض التوتر، لكن الآخر المسيحي يقف نداءً للمسلم يهدده، ويعلمه كيف يحسن تربية أولاده! وإلا فاللجوء إلى السلطة.

لعل أجمل صورة رسمتها الليالي للآخر المسيحي هي صورة الراهب، فقد وجدناه ينصح ملكه (أفريدون) بالامتناع "عن تلف هذه الصور الإنسانية، والهيكل الرحمانية" ويبيّن له أن الصواب حقن الدماء والاقتصار على فارسين في الهيجا"¹³ (هما ملك المسلمين وملك الروم) وهو لم يكتفِ بتوجه النصح إلى ملكه، بل نجده يتوجه بذلك إلى القائد المسلم (شركان) فيتمّ بفضلِه حقن دماء المسيحيين والمسلمين معاً! تزداد هذه الصورة المشرقة وضوحاً في (الليالي 412-413-414) حتى إننا نسمع أحد المسافرين المسلمين يقول عن رهبان عمورية الذين استضافوه بدير الأنوار: "وقد رأيت كثرة اجتهادهم وعبادتهم ما لم أراه من غيرهم."

يلفت نظرنا عبارة "ما لم أراه من غيرهم" إذ إن الراوي المسلم يبدي إعجابه بعبادة هؤلاء الرهبان لكثرتها وإخلاصهم فيها، لذلك يعلن على الملأ تفوقهم على المؤمنين من ديانات أخرى، كأننا نلمح هنا تعريضاً بالمسلمين الذين ينتمي إليهم المسافر الراوي نفسه!

وقد ازدادت صورة الرهبان المسيحيين إشراقاً، حين قاموا بإنقاذ العاشق المسلم، فقد عالجوه، بعد أن ضربه بعض الناس بالحجارة بسبب عشقه امرأة مسيحية.

لكننا نلاحظ رغبة الراوي المسلم في ممارسة دور الداعية الديني، مما يؤثر في رسم صورة موضوعية للآخر، لهذا عمد إلى رواية معجزات حول وفاة كل من العاشقين، ويدخل الرهبان (الأربعين) طرفاً فيها، فقد حاولوا سحب المرأة الميتة من قبر عاشقها المسلم، لكنهم عجزوا، في حين استطاع ذلك شيخ مسلم، لم يجد الرهبان أمام هذه المعجزة وسيلة يعبرون بها عن دهشتهم سوى إعلان إسلامهم!

نلاحظ أن الليالي رسمت صورة الآخر عبر إحساس مرفه بالعدل، شأن أي فن رفيع، لهذا حين تشوب صورة الرهبان أية شائبة (كأن يفتتن الرهبان بامرأة جميلة،

¹³ - "ألف ليلة وليلة" ج1، (الليلة 102) ص252

كما حدث في (الليلة 861) فإن هذه الفتنة يشاركون بها قضاة مسلمون، يفترض بهم العفة والنزاهة.

مثل هذه الصورة الإيجابية للرهبان وجدناها في كتب التراث الإسلامي، فقد كان الراهب مثال رجل الدين الذي يقترن الإيمان لديه بالسلوك الإنساني الرفيع، وهذا ما لمسناه أيضاً لدى أبي حيان التوحيدي الذي جسد لنا، عبر كتبه، لحظات مشرقة في الحضارة الإسلامية⁽¹⁴⁾

نلمس في الليالي تعاطفاً إنسانياً مع الآخر الغريب المسالم، حتى لو كان ينتمي إلى الأعداء، ففي (الليلة 604) حيث وجدنا النصاب يعترف أمام أحد الشيوخ الحكماء قائلاً: "إني رأيت اليوم رجلاً أزرق العينين، وهو غريب البلاد فتقاويت عليه...وقلت له: أنت أتلفت عيني..."

هنا نجد صفتين ملازميتين للإفرنجي المسيحي (أزرق العينين، وغريب) وقد تمّ اللقاء بين الرجلين في جو سلمي، لهذا استخدم النصاب فعل (تقاويت عليه) مما يوحي بدلالة سلبية، أي بالاعتداء على الآخر، وإن كنا قد لمسنا في صيغة الفعل (تفاعل) إحساس النصاب بأنه ظلم الغريب، وتجاوز المألوف بين الناس في معاملة الغريب بالحسنى، كما نلمس أيضاً تعاطف الشيخ الحكيم مع الغريب، إذ يلفت نظر النصاب الأعور إلى أن الغريب باستطاعته أن يرد الأذى بطريقة يخسر فيها عينه الأخرى، فيصبح أعمى، وبذلك يمنع الشيخ الجور عن الغريب!

وهكذا فإن دراسة العلاقة بين الأنا المسلمة والآخر الإفرنجي تدفعنا للقول مع تيير هنتش: إنَّ التعايش بين الإسلام والمسيحية يشكل جزءاً من الإرث الفكر الإسلامي⁽¹⁵⁾.

14 - انظر مثلاً "البصائر والذخائر، المجلد الثالث" لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، د، ت

15- Thirry Hentsch "L, orient imaginaire: La vision politique occidentale de l'est mediterraneen" arguments les editions de minuit, Paris, 1988, p103-104

4- الآخر الزنجي:

نلمس في الليالي الصورة النمطية للزنجي، التي مازالت تلاحقه إلى اليوم لدى معظم الأمم، وهي صورة العبد، وقد وجدنا تخصيصاً لهذه الصورة، أسهم في زيادة تشوئتها، إذ لازمت الخيانة صورة العبد منذ افتتاحية القصة الأساسية، فقد وجد (شهريار) زوجته تخونه مع "عبد أسود" فعانى أزمة نفسية دفعتته إلى قتل كل امرأة بعد ليلة زفافها.

وقد تكررت هذه الصورة السلبية في القصص الفرعية التي تحدثت بها شهرزاد للملك ففي (الليلة 7) تخون المرأة زوجها (الملك) مع عبد أسود، والمدهش أنه يعاملها معاملة العبيد، فيؤنبها لتأخرها قائلاً: "ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة...". في حين نجدها تعامله معاملة الأسياد فتقبل (الأرض بين يديه).

كأن الليالي تريد أن توحى لنا بأن اختلال القيم الأخلاقية يؤدي إلى خلل في التراتبية الطبقية، لهذا وجدنا المرأة الحرة، التي تخون زوجها، تصبح عبدة، ويصبح العبد سيداً! مما يدفع المتلقي للتعاطف مع الزوج (الأبيض) المخدوع والمسحور (نصفه الأعلى إنسان والنصف الأسفل حجر).

لكن أفسى تشويه لصورة الآخر الزنجي، قدّمته الليالي، هي جعله من أكلة لحوم البشر، فأخرج الإنسان بسبب لونه من طبيعته الإنسانية، ليوضع في مرتبة الحيوانات المتوحشة، وقد تكررت هذه التهمة في عدة ليالٍ، ففي الليلة (551) نسمع أحد التجار يقول للسندباد "كيف خلاصك من السودان وهم يأكلون البشر"

أمّا جزيرة الزنوج التي يصلها التجار في الليلة (301) فهي جزيرة الموت والرعب، إذ قبض عليهم الزنوج وأوتقوهم، وقتلوا قسماً منهم وأكلوهم!

سينتكر المشهد في (الليلة 766) فقد أخذ الزوج (سيف الملوك) ومماليكه أسرى، وقالوا لملكهم "إنا لقينا هذه الطيور بين الأشجار، فأخذ ملكهم مملوكين وذبحهما وأكلهما"

نلمح في هذا المشهد تفاصيل جسدية للزوج، إنهم عمالقة إلى درجة أن الآخرين من البشر يبدون أمامهم صغاراً في حجم الـ"عصافير" فيبدو لنا الخيال هنا مثيراً للدهشة من جانب، وموظفاً من جانب آخر، كي يقتعنا بأن فكرة الأكل مبررة، إذ من المنطق أن يأكل العملاق (الزنجي) الطير الصغير (البشر).

المدهش أننا وجدنا في (الليلة 37) أحد العبيد يؤكد هذه التهمة الوحشية، إذ يقول لصديقيه العبيد "أما تعرفان أن أصحاب الغيطان يخرجون من بغداد ويترددون هنا، فيمسي عليهم المساء، ويغلقون عليهم الباب خوفاً من السودان، الذين هم مثلنا، أن يأخذوهم ويأكلوهم... فلما سمع غانم كلام العبد، قال في نفسه" ما أمكر هذا العبد، قبّح الله السودان لما فيهم من الخبث واللؤم".⁽¹⁶⁾

هنا نعايش الرعب الجمعي من الزوج! لهذا لن يجرؤ أحد من سكان بغداد على الخروج ليلاً، وهنا يبرز دور الخيال ليس في إضفاء الدهشة على الصورة، وإنما في جعلها أمراً واقعياً يعترف به أحد العبيد، وبذلك يضيف على الفعل المستهجن من الآخر بعض الإقناع! إذ يأتي الاعتراف بأكل البشر على لسانهم (من فمك أدينك) كأن الراوي يريد أن ينفي أي شك قد يتطرق للذهن، وبذلك يكسب الراوي تعاطف المتلقي، فيندفع مع البطل (غانم) في كيل السباب لهم، ويلحق بهم كل الصفات السلبية (مكر، خبث، لؤم).

إن ما يؤلم في الليلي هو أن يتحول أسود اللون إلى أسود الفعال، لهذا اختار الراوي صفات جسدية تتسجم مع هذه الفعال، وعمد إلى الخيال الذي يشوّه ملامح

¹⁶ - "ألف ليلة وليلة" ج1، (الليلة 37) ص148

وجهه، فيجتمع سواد البشرة مع البشاعة الشكلية والخلقية، فالعبد الأسود الذي يسرق حصانيّ (علي نور الدين) "له مناخير كالإبريق" بل نجد الخيال الشعبي يمعن في رسم ملامحه القبيحة فـ"إحدى شفثيه غطاء وشفثه الثانية وطاء، وشفاهه تلقط الرمل من الحصى، وهو مبتل وراقد على قليل من قش القصب..."⁽¹⁷⁾

نجد المبالغة في رسم أنف العبد وشفثيه، إلى درجة تثير العجب، أمّا المشبه به فقريب المتناول من الخيال الشعبي، إذ استمد من أدوات المطبخ (إبريق، طنجرة، ملقط)

حتى قوة العبد التي قد تحمل دلالة إيجابية، لحق بها تشبيه منفر "كأنه ثور من الثيران..." مما يقتلعها من عالم البشر، ليفذف بها إلى عالم الحيوان الهائج، ويمعن الراوي في تشويه الصورة فلا يكتفي بجعله أسود الفعال والأخلاق، بل أسود اللغة، إن جاز التعبير، لا ينطق إلا بالسوء، ولا يحمل إلا الأخبار السيئة، فهو "أسود اللون والصفحة، قبيح المنظر والطبيعة السخيفة"

لعل ما يزيد بشاعة هذا التشويه هو التأكيد أن الطبيعة الشريرة ملاصقة للون الأسود، بشكل أبدي، مما يمنع أي أمل بتجاوز هذه الصورة! حتى لو كان العبد فقيهاً، يجادل سيده، الذي أراد أن يعتقه، فإننا نجده يعاني من عيب مدمر (الكذب الذي يفزع القلوب ويخرّب البيوت) مما يثير النفور لدى المتلقي، خاصة حين يقول لسيده "إن أعتقتني أنت ما أعتقتك أنا حتى تكمل السنة وتكمل الكذبة... وبعد أن أتمها انزل بي إلى السوق ويعني... ولا تعتقني، فأني ما لي صنعة أفتات منها، وهذه المسألة التي ذكرتها شرعية، ذكرها الفقهاء في باب العتق."⁽¹⁸⁾

¹⁷ المصدر السابق (الليلة 7) ص 31

¹⁸ -المصدر السابق نفسه (الليلة 39) ص 151

حتى الكائنات الخرافية التي تبتكرها المخيلة لإثارة الرعب في الليالي لا بد أن تكون سوداء، كما في الليلة (546) إذ نزل على السندباد وأصدقائه من أعلى القصر في جزيرة نائية "شخص عظيم الخلقة في صفة إنسان وهو أسود اللون طويل القامة، كأنه نخلة عظيمة، له عينان كأنهما شعلتان من نار، له أنياب مثل الخنازير، وله فم عظيم الخلقة كأنه فم بئر..."⁽¹⁹⁾

إذاً لن تكتمل صورة الرعب التي رسمتها المخيلة الشعبية إلا باللون الأسود، لهذا وجدنا الراوي يضيف إليه مظاهر الرعب الأخرى فيجعل النار تتبشق شرراً من العينين، ولا ننسى دلالاتها في اللاشعور الجمعي، فهي عقاب الكافرين في الآخرة، كما بدا هذا اللون قريناً لأبشع الحيوانات (الخنزير) في لا شعور المسلمين نظراً إلى تحريم لحمه عليهم.

ويلفت نظرنا في الليلة (303) ذلك الاستعلاء العرقي الذي يتمادى حتى يصل عالم الحيوان، فالحية السوداء كانت باغية على الحية البيضاء، لهذا ينجدها أبو محمد الكسلان ويقتل السوداء!

العبد المتمرّد:

قلما نجد صورة العبد الذي يتمرد على سيده، وهو حين يخطو هذه الخطوة، لن يكسب تعاطف المتلقي، بصفته مناضلاً من أجل حريته، بل يرسخ تمرد صورته النذلة، إذ يستعين بأساليب قذرة (خيانة الثقة، الكذب، القتل...) كما فعل العبد (غضبان، لنلاحظ دلالات الاسم الموحية بالتمرد) في الليلة (51) إذ طلبت منه (إبريزة ابنة ملك الروم) أن يصحبها إلى أهلها، فقتلها (في الليلة 52) بعد أن رفضت وصاله، في أثناء وضع طفلها، وهذا مما يزيد صورته قبحاً في مخيلة المتلقي، فيستحق تلك

¹⁹ - مصدر السابق نفسه، ج2، ص13

الصفات التي أطلقتها عليه (إبريزة) "ولد الزنا وتربية الخنا" ويستحسن اللقب الذي أطلقه عليه الراوي "العبد النحس"!

هنا لا نستطيع أن نقبل ما ذهب إليه الباحث (المنصف الحسن) من أن اسم (غضبان) الذي منحه الراوي المسلم "لتجسيد موقف عدائي ضد النصارى في ظروف تاريخية تميزت بالصراع بين المسلمين والنصارى"⁽²⁰⁾ لأن العداء ضد العبد، برأينا، مبنيٌّ على أساس عرقي لا أساس ديني، وخير دليل على ذلك أن هذه الصورة الاستعلائية للآخر التي رسمتها مخيلة "ألف ليلة وليلة" للآخر العبد الأسود، تقف على نقبض الصورة التي رسمتها للعبد الأبيض، خاصة أن الجارية البيضاء احتلت مكانة رفيعة في مجتمع الليالي.

إننا نلمس في هذه الصورة المشوهة للعبد الأسود ابتعاداً عن روح الأخوة بين البشر التي دعا إليها الدين الإسلامي "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (سورة الحجرات، آية 13) بل وجدنا الرسول (ص) لا يكتفي بأن يطالب بمعاملة العبد بمعاملة حسنة، بل يحرص على مشاعر العبد، فيقول: "لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي". (رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن حنبل)⁽²¹⁾

5- الآخر غير الأرضي (الجن):

صورة من الموروث الإسلامي:

لم تتكرر "ألف ليلة وليلة" تلك الكائنات غير الأرضية، بل هي جزء من الموروث الجاهلي (وادي عبقر في الجاهلية الذي يسكنه الجن، فكان لكل شاعر ملهماً من الجن) كما هي جزء من الموروث الإسلامي، إذ ورد في الليالي اسم الجن أو العفريت

²⁰ - المنصف بن حسن "العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة" سراس للنشر، ط1، تونس، 1994، ص88

²¹ - من أجل التفاصيل انظر "الإسلام وحقوق الإنسان" د. محمد عمارة، سلسلة عالم المعرفة الكويتية ع (89) أيار، ص21

وصفاتهم كما وردت في القرآن الكريم، فهم مثلاً يشتركون مع الإنس بتتويعهم بين الكفر والإيمان "وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك، كنا طرائق قدا" (سورة الجن آية 11).

وحتى الأعمال الخارقة، التي يقوم بها الجن في الليلي، وجدناها في القرآن الكريم، إذ استعان بهم النبي سليمان ليأتوا له بعرش بلقيس (ملكة سبأ) في اليمن "قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً قال: هذا من فضل ربي..." (سورة النمل، آية 39 و 40) فقد استطاع الجني أن يأتيه بعرشها في طرفة عين، رغم أن آلاف الفراسخ تفصله عنها!

يحاول الراوي في الليلي تقديم الجني محاطاً بشيء من الغموض، كي يثير انتباه المتلقي! (كما حصل لأبي محمد الكسلان) في الليلة (303) فلا يتبدى للشخصية إلا عبر صوته "وإذا أنا بهاتف أسمع صوته، ولم أرَ شخصه" بعد قليل سينقلب الصوت إلى "صورة إنسان" ويقول له: "لا تخف فإن جميلك قد وصل إلينا، ونحن قوم من جن مؤمنين، فإن كان لك حاجة أخبرنا... أنا أخو الحية البيضاء التي قتلت عدوها... واعلم أن الذي كان على صورة القرد، وفعل معك المكيدة، مارد من مردة الجن، ، ولولا أنه تحيل بهذه الحيلة ما كان أخذها منك... ولكن لا تجزع، فنحن نوصلك إليها، (أي إلى المرأة) ونقتل المارد، فإن جميلك لا يضيع عندنا"⁽²²⁾

نلاحظ هنا تعدد صورة الجني، فهو تارة في صورة إنسان (طيب يعترف بالجميل) وتارة في صورة حيوان (قرد يتخفى في داخله مارد شرير) لكن في الليلي، كما في الحكاية الشعبية، ينتصر الجني الخير ويهزم الشرير دائماً!

وقد عايشنا صورة تبرز تعاون الجن والإنس، خاصة حين تنتهك القيم، فنجد في (الليلة 778) يهب الجني (الملك شهبال) لنجدة الإنس، فيحارب الجني (الملك الأزرق)

²² - "ألف ليلة وليلة" ج 1، ص 535

لأنه ظالم "يخطف أولاد الناس، وبنات الملوك، ويضعهم في القصر المشيد والبئر المعطلة، ويفسق فيهم".

وقد نشأت أخوة في (الليلة 791) بين إحدى الجنيات و (حسن) كانت لصالح الإنسان، فقد وجدنا الجنية تدافع عنه، وتساعد في الوصول إلى حبيبته، وحين تستغرب أخواتها تصرفاته، تفسرها قائلة "وأنتن تعرفن أن عقول بني آدم خفيفة" كأن الراوي يريد أن يوحي لنا بأن الجن أكثر تعقلا من الإنسان، ومن جهة أخرى تكسب الجنية تفهم إخوتها للضعف الذي ينتاب البشر أحيانا، وخاصة أنها تعلي من شأن الجن على حساب البشر.

حين نتأمل أسباب هذه الأخوة سنجدها عقائدية، ففي (الليلة 825) قد ساعدت الجن (حسن) لأنه مسلم، ولأنه مظلوم، يطالب بحقه، فيعطونه (طاقة الإخفاء) وقضيباً "يخرج له عشرة عفاريت في خدمته، وهم ملوك الجن".

نلمح هنا نظرة استعلائية، لدى الراوي الإنسي، الذي يجعل ملوك الجن لا يكتفون بمساعدة البطل الإنسي الفقير، بل يتحولون خدماً له، وبذلك ينتقم الراوي من ملوك يسكنون باطن الأرض، في حين لا يجسر على ذلك مع ملوك الأرض، فيعوض عبر الفن عن إحساسه بالقهر!

كما أننا لم نلمس في الليالي الأخوة بين الجني والإنسي فقط، بل وجدنا الصراع بينهما، خاصة حين تنتفي الرابطة الدينية، ولكن أي صراع سينتهي لصالح الإنسي، خاصة أنه بين عفريت كافر وإنسان مؤمن، كما حصل في (الليلة 14) حيث انتصرت ابنة الملك عليه، فنسمعها تقول: "الله أكبر الله أكبر قد فتح ونصر وخذل من كفر بدين محمد سيد البشر" فيحس المتلقي أنه يشهد صراعاً بشرياً، يتماهى فيه الجني الكافر مع الإنسي الكافر، لهذا سينتصر عليه المؤمن، كما لاحظنا سابقاً!

صورة واقعية:

إذاً لن نجد عالم الجن يختلف عن عالم الإنس في تفاصيل حياتهم اليومية! فهم، كالإنس تماماً، يحتاجون إلى الأكل والشرب والسكن والزواج، والإيمان، فنسمع العفريتة (زوجة التاجر) تقول في الليلة الثانية: "أنا مؤمنة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم..."

وقد بدا لنا الكائن الخرافي (الغولة) صورة عن الإنسان المؤمن، لهذا وجدناها تتصح ابن الملك (في الليلة الخامسة) بالاستعانة بالله إن كان مظلوماً فإنه يكفيك شره وشر جميع من تخافه"

وهكذا لا نجد في الليالي جداراً عازلاً بين عالم الإنس وعالم الجن، بل تتشأ بينهما علاقات طبيعية (زواج، صداقة، أخوة...) وعلى نقيض الصورة المشوهة للجن في المخيلة الشعبية، نجد الليالي تبرز صورة الجني فاعل الخير، الذي يرأف بالمحبين، ويساعدهم، فيقرب بينهم حين تتباعد الأقطار (كما فعل الجني الذي جمع بين قمر الزمان وابنة ملك الصين) بفضل ما يمتلكه من قوى خارقة، تميزه عن البشر.

وكذلك وجدنا صورة المرأة الجنية تتجاوز المؤلف، فنقوم ببعض أعمال الرجال كالصيد، فالجنيات السبع يذهبن إلى الصيد، لكنهن يشاركن الإنسانية في العجز عن بعض الأعمال، فيطلبن في (الليلة 792) من (حسن) القيام بذبح الحيوان من أجل الطعام!

والمرأة الجنية كالإنسية في حياتها، لهذا ترفض الجنية التي سرق (حسن) ثوبها أن تخرج من الماء عارية، حتى تأتي لها أختها بثوب ترتديه!

صورة متخيلة:

يتمتع الجني أو العفريت بقدرات خارقة، تمكنه من تحقيق المعجزات (يبني المنازل والقصور في طرفة عين، وكذلك يأتي بأصناف شتى من الطعام والكنوز في

ثانية) فهو يتجاوز المؤلف، ولا يهتم بالعقبات التي تشكلها المسافات المكانية أو الزمانية، فتقهر البشر وتكبّلهم.

إن ما يلفت النظر تسخير هذه الخوارق لنصرة الضعفاء والفقراء! إنها الحلم الأبدى في مقاومة الظلم والقهر، لتحقيق عالم أجمل وأكثر عدلاً! خاصة أن الإنسان في الليلي قد سدّت أمامه منافذ العيش الكريم في زمن كثرت فيه المجاعات والحروب! فبات يبحث في الوهم الذي يقدم ملاذاً متخيلاً يعوّضه، وقد لاحظنا المبالغة في التخيل إمعاناً في إيجاد العزاء، إلى درجة رُصدت ملوك الجن لخدمة الإنسان الفقير والمظلوم، لهذا نكاد نفتقد في الليلي إلى قصص خرافية لا صلة لها بأحلام الإنسان وآلامه!

رغم القدرات الخارقة التي يتمتع بها الجن لا نجد فيها إعلاء لشأنهم على حساب الإنس، وكثيراً ما وجدنا أبطال الليلي يمتلكون هذه القدرات، فيستخدمون أدوات الجن العملاقة، فقد أعطى (مرعش ملك الجن) صديقه الإنسي (غريب) سيفاً (طوله اثني عشر شبراً وعرضه ثلاثة أشبار) لكنه يعبر عن شكه في قدرته على استخدامه! لهذا يقول له "إن كنت تقدر أن تضرب به فخذّه، فقال غريب: نعم ثم أخذه، فصار بيده كالعصا، فتعجب الحاضرون من الإنس، وقالوا أحسنت يا سيد الفرسان".⁽²³⁾

يشكك الجني بقدرة البطل الإنسي في استخدام سيفه الضخم، لكن البطل يبذل سوء ظنه، ويبذل الصورة الدونية التي رسمها له الجني، فيفاجئه بقوته التي تستصغر شأن السيف، فيحمله، كما يحمل العصا، لهذا سيضمن الراوي إعجاب الحاضرين به من الجن والإنس، فتزداد صورة البطل قوة ومضاء في المخيلة!

²³ - "ألف ليلة وليلة" ج2، الليلة (653) ص153

خاتمة: جماليات الصورة

تكمن جماليات الصورة في "ألف ليلة وليلة" في تعددها، فلم نجدها تتسم بالسكون، وإنما ثمة ما يفاجئ المتلقي، فيخلخل معارفه، ويغير الصورة النمطية التي كونها عبر أوهامه الثقافية.

وقد بدت لنا الصورة التي تجسد العلاقة مع الآخر المختلف أقرب إلى الموضوعية حين تبدو متأثرة بالمعاشة اليومية، لكن حين تكون لقطة سريعة بعيدة عن تلك المعاشة نجدها مؤطرة بالرعب والشر، وبذلك يبدو لنا التطور في العلاقات الإنسانية وإزالة سوء التفاهم محكوم بالمعرفة واقتراب الإنسان من أخيه الإنسان!

أسهمت اللغة في منح الصورة حيوية وغنى، واستطاعت أن توحى لنا بالبيئة الثقافية التي ينتمي إليها البطل والعصر الذي يعيش فيه، لهذا يقول رستم لغريب في الليلة (167) "باركت النار فيك..." وحين يعرض عليه الإيمان، يسأله كيف؟ فيجيبه بأن نقول: لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله."

ورغم تأثر الليالي بما قدمته الحضارات الإنسانية جميعاً، فإن أثر الحضارة الإسلامية كان الأبرز، بدا ذلك في لغتها، وسيطرة مفاهيمها على الحياة الاجتماعية، وسلوك الإنسان، وقد تأثرت صورة الآخر بالمعتقد الديني، فكلما كان الآخر قريباً من قيم الإسلام كانت صورته إيجابية، لذلك كان التشوّه من نصيب الكافر سواء أكان إنسياً أم جنياً، لهذا بدا لنا في الليالي عالم الجن أقرب إلى عالم الإنس.

كما لمسنا فيها تشويهاً لصورة الآخر الزنجي، تتم عن نظرة استعلائية، فألحقت به كل الصفات السيئة سواء أكانت جسدية أم معنوية.

إن هذا القول لا ينفي الروح الإنسانية التي رسمت بها، غالباً، صورة الآخر، لذلك لم تبدُ محنطة باهتة، بل بدت حيوية، تزخر بالقيم العليا، التي تجسد روح الإسلام! لذلك ليس غريباً أن تصبح "ألف ليلة وليلة" منبعاً خيالياً لروايات ما بعد الحداثة، فهي أسطورة الأساطير، وتاريخ السرد وفاعلية الحكيم⁽²⁴⁾

²⁴ Freial Ghzoul "les mille et une nuits en partage" sous la direction d,Aboubakr Chaibi, Sindbad,Actes, Paris,2004, p166

المصادر

"ألف ليلة وليلة" الجزء الأول، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ
"ألف ليلة وليلة" الجزء الثاني، دار صادر، طبعة أصلية وكاملة، بيروت، دون تاريخ

المراجع

1. أبو حيان التوحيدي "البصائر والذخائر، المجلد الثالث" تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار أطلس، دمشق، د، ت
2. أسامة بن منقذ "كتاب الاعتبار" مذكرات دقق نصوصها وفصل فقرها وقدم لها وعلق عليها د. عبد الكريم الأشر، المكتب الإسلامي، ط2، 2003
3. د. عبد الحميد بورايو "التحليل السيميائي للخطاب السردي" منشورات مخبر "عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر" دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ط1، 2003، ص25، بتصريف
4. عدد من المقارنين الفرنسيين بإشراف بيير برونيل، وإيف شفريل "الوجيز في الأدب المقارن" ترجمة د. غسان السيد، ط1، 1999
5. د. ماجدة حمود "مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن" اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000
6. د. محمد عمارة "الإسلام وحقوق الإنسان" سلسلة عالم المعرفة الكويتية ع (89) أيار، 1985
7. المنصف بن حسن "العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة" سراس للنشر، ط1، تونس، 1994

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Thirry Hentsch "L, orient imaginaire: La vision politique occidentale de l'est mediterraneen" arguments les editions de minuit, Paris, 1988
2. Freial Ghzoul "les mille et une nuits en partage" sous la direction d,Aboubak Chaibi, Sindbad,Actes, Paris,2004,

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2008/8/20.